كلمة الوزير ميشال اده في مناسبة
إعادة طبع مؤلّفات ميشال شيحا باللغة العربية
الحركة الثقافية – انطلياس
١٩٩٧/٢/٢٠.

لست أجدني بحاجة الى التعريف بميشال شيحا، هذا المثقّف المفكّر، الكاتب، الصحافي، الشاعر، الخلّاق الفذّ في كل هذه الحقول من الإبداع والمعرفة. لكنّ ما تميّز به هذا الرؤيوي المتنبئ بالدرجة الأولى، وما جعل منه هذا العملاق الكبير، وأدخله الى التاريخ من بابه الواسع، إنّما هو انهماكه المعرفي والسياسي والكتابي المعمّق بشواغل القضية الفلسطينية حتى آخر يوم من حياته. وتعلمون أن آخر مقالة حبّرها على فراش الموت لم يكن موضوعها غير القدس وفلسطين، قبل أربعة عشر يوماً من انطفاء قلبه عن الوجيب في ٢٩ كانون الأول ١٩٥٤ . لكأنّما فلسطين دائماً آخر نبض خفق في قلبه.

وبسبب ضيق الوقت المعطى لي، سوف لا أكرّر على مسامعكم ما قاله ميشال شيحا، بكل حيويته المعاصرة اليوم. إنّ ذلك موجود في الكتاب.

قصاراي هنا أن أتوقّف الى استثارة الدعوة لقراءته مجدّداً ودائماً. وأمنيتي أن أتوفّق الى المطالبة بتدريس كتابه هذا عن فلسطين في مراحل التعليم الثانوي وفي التعليم العالي بخاصة.

ليس بإمكان أحد أن يتصوّر مدى القدرة التي تجلّت عند ميشال شيحا على التنبؤ بما سوف يحصل، وأكاد أقول النبوءة حقيقة. فلكم تخوّف منذ ثلاثة وخمسين سنة، وحتى مماته في ١٩٥٤، من العديد العديد من المخاطر الملموسة التي سوف تقع على لبنان وفلسطين والعرب من جرّاء إنشاء هذا الكيان الصهيوني.

ولكم حذّر، داعياً الى التنبه الى هذه المخاطر التي رآها واقعةً لا ريب في وقوعها إن لم يجرِ تداركها. وما تخوّف منه، منذ ذلك الحين، ما يزال الى الآن موضوع تخوّف من قبلنا اليوم، وموضوع خشية، وموضوع وجوب الحذر من تكرار الوقوع به.

ومن هذه الحقائق / المخاوف / المغبّات، نكتفي بتعداد الآتي، مثالاً لا حصراً :

– انسياقنا أو انسياق بعضنا الى توهّم انقسام ولاة الأمر في اسرائيل بين معتدلين ومتطرّفين. فاسرائيل، مذ ولدت، تتابع الخطط ذاتها، الستراتيجية ذاتها في التوسع والسيطرة والهيمنة وقضم الأراضي والإحتلال. أمّا التغيّر الطفيف باللهجة أو بالأسلوب في التعبير عن هذه المواقف ذاتها فليس أكثر من تمشٍ مع مقتضيات الظروف.

الأمور واحدة اسرائيلياً، سواء مع شاريت، أو بن غوريون، أو بيغن أو شارون أو رابين أو نتنياهو.

– وما نواجهه الآن من مصاعب حقيقية، كان ميشال شيحا قد نبّه الى وقوعها، ودعا الى استباقها بالتيقّظ إليها.

ولسوف أحصر كلامي، أجدني مجبوراً على أن أحصره، بأبرز المواقف والإضاءات النيّرة التي أطلقها ميشال شيحا، وما تزال صحيحة كل الصحة حتى يومنا هذا، وهاجسي الأول أن أبرز أن هذا الرجل قد كشف حقائق الأمور منذ البداية، وقبل أن ترتسم معالم تفاصيل ذلك المشروع الذي كان في بداية تكاوينه وقبل وجود دولة اسرائيل.

١– مرحلة الأخلاق في انهيار : ١٩٤٥ – ١٩٤٧

× خاطب ميشال شيحا العالم كله، في ٥ كانون الأول ١٩٤٧ أي بعد خمسة أيام من قرار التقسيم قائلاً :

«إن قرار تقسيم فلسطين بخلق الدولة اليهودية من أعظم الضلالات التي اجترحتها السياسة المعاصرة. فلسوف يستتبع هذا الأمر، وإن بدا يسيراً، أعجب العواقب. ولا نكون قد امتهنّا العقل إن قلنا أن هذه القضية الضئيلة ستعمل على زعزعة الأرض من أساساتها».

وهل ثمّة أعمق وأدق من هذه الرؤية التي لم تكن الأحداث اللاحقة إلاّ تجسّداً لما قال ؟

٢– مرحلة التخلّي عن أرض المَقْدِس : ١٩٤٨ – ١٩٥٠

× في ١٨ أيار ١٩٤٨، أي بعد ثلاثة أيام على إعلان قيام الكيان الصهيوني، وقبل أن تتكون هذه الدولة بعد، وقبل أن تتوضح معالم توجهاتها وسياساتها الصريحة، نبّه ميشال شيحا الى المدلولات الخطيرة الآتية، حتى قبل بوادرها :

« ... فإن قوة اسرائيل العالمية التي تمثّلها في تل أبيب حكومة ذات سيادة، تجتمع كلها على البلدان العربية وعلى استعبادها الإقتصادي، من أجل سيطرة سياسية آتية».

وبمواجهة ذلك الخطر الآتي، دعا ميشال شيحا العرب الى المبادرة للمقاومة، في المقالة ذاتها :

«ليست المقاومة العربية أمراً لازماً فحسب، إنّها لأمر حيوي. ولسوف تضحي مع الزمن، بالنسبة الى الشرق الأدنى، من اليابسة الأسيوية الى مصر، قضية حياة وموت، حقاً وواقعاً».

هذا النداء الذي أطلقه منذ تسعٍ وأربعين سنة، ما يزال يعبّر، الى الآن، عن حقيقة الوضع وعن مقتضيات الواقع الراهن.

× لقد اعتبر المقاومة واجباً حيوياً، لأنّه استقرأ منذ البدء الطبيعة التوسعية العنصرية لهذا الكيان :

«فلو لم تكن المطامح اليهودية ما هي، لما أتت تقديراتنا قاتمة، ولا هواجسنا واسعة بهذا المقدار. غير أن لبنان هو أول ما يبتغي الدفاع عن نفسه. وفي ما تتوخاه مملكة اسرائيل الجديدة، هو أن تربي على اسرائيل القديمة».

وفي ٢٨ أيار ١٩٤٨، ذكّر ميشال شيحا بمذكّرات «جيمس ف. بيرنز» عن التوسع الإقليمي والأمن المزعوم :

«فيما أنا أتمحص هذه المسألة، لا يسعني إلاّ التفكير في أناس يبتغون شراء دار أو مزرعة مجاورة ليذودوا، بالشراء، عن مزرعة لهم ودار. وليس ثمّة من يجهل هذا الضرب من البشر. وسرّ الصعوبة أنّه لا بدّ من وجود دار أو مزرعة مجاورة على الدوام».

على هذا القول يعلّق شيحا بقوله المحذّر :

«فنحن الدار، ونحن المزرعة المجاورة، ولسوف نظلّ داراً ومزرعة، مباشرة أو مداورة. فلنتيقّن من ذلك. وليعلم رفاقنا السوريون مدى تعرّضهم للخطر المداهم».

وهذا الكشف الفاضح لمفهوم الأمن الإسرائيلي المزعوم أطلقه ميشال شيحا بعد ثلاثة عشر يوماً فقط من إعلان الدولة الصهيونية. أ و ليس هو هو الذي ما تزال اسرائيل تتابع انتهاجه ؟؟

× وفي سياق تحذيره العرب، ودعوته الى معرفة عدوّهم على حقيقته، والى الإقلاع عن الإستخفاف بما حصل، تراه يكتب في ١٢ حزيران ١٩٤٨ :

«يجب أن نضع نصب أعيننا أن اسرائيل أضحت دولة عالمية، وليست تلك الحفنة من المشردين والمضطهدين الباحثين عن ملجأ تحت السماء، كما شاؤوا أن يصوروها لنا».

والأهم بالنسبة إليه كان ألاّ يصدّق العرب ذلك. وأن يعدّوا العدّة لمواجهة دولة عالمية القدرات والقوّة، في وقت ظنّ العرب أنّهم سيحققون النصر على هذا الكيان بكل سهولة ويسر. ولم يدركوا – وللأسف – عالمية هذه القوة وقدرتها على بسط سيطرتها وهيمنتها.

× وفي ٥ تموز ١٩٤٨، أي بعد شهر وعشرين يوماً من إعلان الكيان الصهيوني، لم يكفّ عن نقد مواقف العرب غير المبالية وغير المدركة لكامل أبعاد الخطر الذي يداهمهم :

«... برغم المخاطر التي تنجم عن الدولة اليهودية، فالبلدان العربية لم تدرك بعد أن خطر الدولة اليهودية أعظم ما يتهددها من مخاطر. والواقع أن هدف اسرائيل هو استلاب العرب ملكهم، من البحر المتوسط حتى الفرات، آجلاً أو عاجلاً ... فإن سلّم العرب كانوا كمن أقحم نفسه في الظلمة مختاراً، وكان تسليمهم انتحاراً.
... فعلى العرب، كيفما تطورت وساطة الكونت برنادوت، أن يستفيقوا من شبه الغفوة التي يستسلمون لها، ويناضلوا بجميع الوسائل المشروعة، وجميع قواهم..».

× وفي ٧ تموز ١٩٤٨، يتابع صرخته :

«لم يتبقّ للعرب مورد إلاّ الحرب الدفاعية التي فرضت عليهم فحسب، بل ثمّة مورد لا ينتهي، صمود لا بدّ أن يتجلّى، وأن يشتدّ يوماً على يوم».

ويسخر من توهم اسرائيل قيام سلم مبنيّ على العنف، وهي التي غرست بذوره :

«إنّه لجنون من قبل اسرائيل حقاً أن تناشد في فلسطين للعنف سلماً يدوم. ينبغي أن يعلم اليهود، إن هم مضوا في عنادهم، واستطاعوا الصمود، أنّهم سائرون لا محالة نحو حرب «المئة عام».

وكل هذا الإستقراء للآتي، واسرائيل في شهور ولادتها الأولى !!
فلا سلام على الإطلاق مبنياً على العنف بنظر ميشال شيحا.

× في ١٨ تمّوز ١٩٤٨، يتوقف ميشال شيحا عند تراخي العرب عن الإعلام عن قضيتهم المحقة، مخلين المكان والساحة للإعلام الصهيوني الذي غرس في أذهان العالم أنّ العرب هم

الجلاّدون المعتدون، واسرائيل هي المعتدى عليها والضحية :

«لقد غلا العرب في ميلهم الى الإنعزال ببرجهم العاجي عن العالم والحياة، فأفسحوا المجال للدعاوات المعادية. اليهود، لا العرب، هم الذين تيسّر لهم أن يختلقوا سوابق رأي يلائمهم في بلدان تقرير المصير، رغم أنف كل عدالة. فملأوا الكون بالتوسّل والصراخ، وعمدوا الى شتّى أساليب الضغط، وسخّروا جميع الحيل ...».

– فلقد انتبه ميشال شيحا باكراً جداً، لأهمية الجبهة الإعلامية، ولتقصير العرب وغيابهم في هذه الجبهة وعنها. وحاول أن يدفعهم للملاحظة بأنّ اسرائيل المطالبة بباطل تجعل منه حقاً، وان العرب القاعدين عن المطالبة بحقهم، عن معرفة التعريف به، يجعلونه باطلاً، أو مطموساً.

وكأننا بميشال شيحا لم يدع شاردة ولا واردة تتصل بتعزيز موقع العرب إلاّ وناشدهم الإنتباه إليها ..

– ومنذ ذلك التاريخ، وقبل تبلور الكيان والدولة المغتصبة، ثابر على تفتيح أعين اللبنانيين والعرب على كنه ما ينطوي عليه المشروع الإسرائيلي :

«إنّما الخطر الطامي بنا وبجيراننا لا يحدّ. فهو مشروع وقاح، جسور، من السيطرة الإقتصادية، والمالية، والصناعية، والتجارية، ومغبّته تجاوزات إقليمية وسياسية وارتهان أعناقنا بمثل نير أرزح، بل واستعباد».

وتنبّأ كذلك، ومنذ هذا التاريخ نفسه (١٨ تموز ١٩٤٨) باندلاع حرائق التعصب الجنوني :

«إذ لا يلوح وراء هذي القضية شيء غير اندلاع تعصب مستشرٍ وسخط هائل من التزمّت، ودمار ودم ودموع كثيرة في أمصار عديدة».

وهل نشهد اليوم غير هذه الحرائق تلفّ بلدان المنطقة، وما هو أبعد من هذه المنطقة ؟

× وفي ٤ أيلول ١٩٤٨، ولم تكن اسرائيل قد تركّزت بعد بالفعل، يصرخ ميشال شيحا : «القدس في خطر ... وجليّ أن مطمح اليهود يصبو الى الإستيلاء على القدس، ليجعلها، مرحلة إثر مرحلة، وطن اليهود الأم. إذ لا صهيونية بلا صهيون. ودولة اسرائيل لن تغنى أبداً عن القدس ...»

«إنّها الدولة اليهودية رأس جسر، ونقطة انطلاق، وبداية، ولقد بيّنا ذلك غير مرّة. إنّها سبيل لاغتصاب فلسطين برمّتها، وأرض ما وراء الأردن شاسعة، وأصقاع بسوريا أخرى، أي ما كان في حوزة الأسباط الإثني عشر. وإن عنت السانحات، من بعد، فامتلاك ما كان قديماً لإسرائيل، وفوقه. ما كان عليه وطن ابراهيم».

– فالتقسيم – رآه – مرحلة، ومنطلقاً، الى ما هو أبعد. وجاءت الوقائع تؤكّد ما رآه. فالى أين وصلت اسرائيل في حروبها اللاّحقة ؟
ويتابع ملحّاً على التحذير، في ٤ أيلول ١٩٤٨ :

«فنحن، اللبنانيين، مدعوّون الى رؤية هذا السلطان على حدودنا يتّسع، والى تحميل الثقل الساحق بوجوده، ومحاولاته، والى الإشتراك في تحبير المراثي. أمّا سوريا، وشرقي الأردن، ومصر، فإنها شرعت ترتاب في ما ينوبها..».

× لكن ميشال شيحا لا يداجي، ولم يعمد مرّة واحدة الى طمس مسؤوليتنا واستبعادها عن التداول، وفق ما شاع في الخطاب العربي آنذاك، بإسم تحميل مصائبنا جميعها على عاتق الآخرين والغير، وإعفاء أنفسنا من مسؤولياتنا الأساسية. فتراه يشير بوضوح ساطع في **٢٧ تشرين الأول ١٩٤٨** الى الخطأ المميت الذي ارتكبه شرق الأردن ودول الجامعة العربية عندما رفضوا إعلان حكومة فلسطينية، فلنستمع إليه :

«ليس رائدنا ههنا أن نعدد الأمور باطلاً، أو نزيد العواقب سوءاً ... إنّه لم يكن من الممكن أن تترك فلسطين بلا حكومة منذ سبعة أشهر أو ثمانية، وعلى أي حال قبل ١٥ أيار (تاريخ جلاء الإنكليز)، بينما كان اليهود، منذ أمد بعيد، قد جهّزوا حكومة متجانسة، متماسكة، يقابلها من الجانب العربي فراغ ما برح قائماً الى أيّامنا هذه ... فلو أنّه كانت لفلسطين حكومة عند أواسط أيار، لتضاءلت نكبة اللاجئين، واجتنبت صروف أُخَرْ، وهذا أقلّ ما يقال. إلاّ أنّهم أبوا حينئذ أن يقيموا في فلسطين حكومة تحكمها، فأفجعوها إذ جعلوها بلداً محتلاً، بديل أن يجعلوها بلداً يذود عن نفسه. إنّها لمسؤولية مرهقة سيسجّلها التاريخ. وتقاسمت دول الجامعة العربية ما بينها إدارة فلسطين، فباتت وكأنّها عملياً لم تكن ...».

– أمّا عن السبب في ذلك، فلم يتردّد ميشال شيحا عن تسمية الأمور بأسمائها :

«لقد تمّ هذا كلّه لأنّ النيّات لم تكن صافية. والذين زعموا أنّهم يبتغون لفلسطين الخلاص، كانوا يطمعون ببعضها على الأقل ... فالمغبّة نصب أعيننا والقلب ينقبض حقاً ...».

وهل لا ينقبض قلب المرء حقاً، وتأخذه غصة الحرقة والمرارة، بإزاء المناورات العربية

الصغيرة فيما بين الدول العربية نفسها، وطغيان الخلفيات الضيّقة، وانعدام الإحساس بالخطر الواحد الذي يتهدّد مصير الجميع، وغياب التضامن العربي ووحدة الموقف والعمل. وهي عوامل داخلية عربية صبّت وتصبّ بالتالي دائماً في مصلحة اسرائيل ؟

× **في ٦ آب ١٩٤٩**، يعود ميشال شيحا الى تفصيل مخاطر هذا الضعف :

« ... إن مصلحة اسرائيل تقضي بأن تداوم على إحياء عوامل الضعف الداخلي والخلل السياسي والإجتماعي في الحيّز العربي. فضلاً عن الوهن العسكري، إذ يتسلّح القوم خلقياً وسياسياً كما يتسلّحون عسكرياً. لسنا على يقين من أنّ الحكومات العربية تدرك ذلك، ونودّ لو كنا مخطئين في زعمنا ».

« وحكومتنا هي أولى الحكومات التي نتمنّى أن نراها متيقظة ؛ وبالقدر نفسه، ولا شكّ، حكومة دمشق، وقد لاح أنّها، على الصعيد العسكري، شديدة الحذر . .. غني عن البيان أن قوّة الأمم لا تتأتى مما في حوزتها من آلات الحرب فحسب، وإنما نلقاها أيضاً، وفوق ذلك، في ما تنتهج من سياسة ومحالفات ».
« من له أذنان ناصتتان فليسمع : فكما أنّ إسرائيل لا تريدنا مسلّحين، فإسرائيل تريدنا وقد عرانا الوهن في كل شيء. أي أن ترانا بلا حلفاء وتسوسنا حكومات غير صالحة ».

– هدف اسرائيل رآه ميشال شيحا منذ البدء : إضعاف العرب عسكرياً، وسياسياً، واقتصادياً وداخلياً، واجتماعياً. وكم ظلّت صرخته هذه صرخة في واد أو في صحراء ؟؟ وكم تكلّف العرب من أكلاف باهظة نتيجة تأخّرهم عن عقد التحالفات والعلاقات المتعدّدة التي تساعدهم في قضيتهم العادلة. ونتيجة تأخرهم عن رؤية طوق العزلة التي سعت اسرائيل، الى شدّ خناقها عليهم، لتستأثر هي وحدها بالعلاقات والمحادثات والتحالفات مع الأوساط والدول صاحبة القرار في العالم.

« لم يعد ثمّة أرض مقدّسة » (٦ كانون الأوّل ١٩٤٩).

«قديماً كانوا يتحدثون عن أرض مقدّسة، أمّا الآن فهم لا يتحدثون إلاّ عن أماكن مقدّسة. والأماكن المقدّسة نفسها تتضاءل يوماً فيوماً، بعد أن صَدَفَ عنها حماتها الطبيعيون وتلهّت بقضمها اسرائيل..»

– مرور الزمن لم يفعل غير تأكيد هذه الحقيقية المرّة التي رآها ميشال شيحا آتية حاصلة لا ريب فيها. وكم حذّر من قدومها. ومن تخاذل حماة الأرض المقدّسة الطبيعيين عن حمايتها ... بل ترك لإسرائيل أن تعمل قضماً بها..

لذلك كان رأيه، دفاعاً عن الأماكن المقدّسة ودفاعاً عن القدس وجوارها من الأرض المقدّسة، أن يصار الى تدويل القدس، درءاً للمصيبة الآتية. إنقاذاً للقدس نفسها..

× في ٢٩ تموز ١٩٥٠ كتب ميشال شيحا :

«إنّما الإسرائيليون يهاجمون السوريين يوما، والمصريين يوماً. لقد لذّ لهم طعم الحرب ... ومهما يكن، فليس من لا يسلّم بأنّ سبيلنا، نحن اللبنانيين، هو التسلّح والوقوف على حذر، مهما ملنا الى المسالمة، فقد تتجدّد الغارة المشؤومة التي شنت البارحة على الطائرة المدنية فأوقعت بالضحايا..»

– إذاً، لا سبيل لنا إلاّ الإستعداد للمواجهة. هذا اللبناني المعروف بكونه عنوان الإعتدال ورجله الأول يعلن هذا الموقف وهذا السبيل. في الوقت الذي كانت تطلق وللأسف شعارات مغايرة كمثل «قوّة لبنان بضعفه».

المرحلة الثالثة : النكبة زاحفة : ١٩٥١ – ١٩٥٤

بالنسبة لميشال شيحا تنتهي هذه المرحلة في ١٩٥٤ عند وفاته.
أمّا بالنسبة لنا فهي مستمرة، هذه النكبة بالزحف، حتى أيامنا هذه.

– في **٣ كانون الأول ١٩٥٢**، يدعو ميشال شيحا الى موقف عربي من المفاوضات مع اسرائيل، كم هو اليوم معاصر. كم هو اليوم صحيح. كم هو اليوم لبنانيّ حقاً وسوري حقاً وعربي حقاً :

«إن اقتراح مباحثات مباشرة ما بين العرب والإسرائيليين ابتداءً من لا شيء، (من الصفر)، ليفترض وجود بعض القحة في مقترح السيد أوبري إيبان. ثم إن الأمم المتحدة قد اتّخذت بشأن اسرائيل مقررات، واسرائيل تأبى أن تقيم وزناً لهذي القرارات التي تفرض في المناقشات وجوداً دولياً.فما عسى أن نتداول ما بيننا نحن والإسرائيليين، ما دامت قضايا خطيرة بمقدار ما هي قضية تدويل القدس وضمانة الحدود دولياً، وما دامت قضية الحدّ من الهجرة اليهودية الى اسرائيل كلّها بمعزل عن هذا الجدل ؟»

«... إنما الصلح مع اسرائيل، ضمن الشروط التي يقترحها السيد ايبان يعني **تشجيعاً معموداً (مباركاً) لاغتصابات اسرائيل الآتية.** الصلح الذي يبتغيه إيبان إنّما به يسعى الى إعداد الحرب. إن صلحاً كهذا لأنكر من الهدنة الغريبة التي نعيش في كنفها. ... وإذا كان للعلاقات الإقتصادية مع اسرائيل من مغزى فلكي تتمكن هذه الدولة من وضع يدها على اقتصادنا الخاص، وعلى مصادر طاقاتنا».

«ونحن نرى، أن المحادثات المباشرة مع اسرائيل أمر ينكره العقل، ما دام الوضع على ما هو. وأكيدٌ أنه ينبغي التعهّد أولاً، باحترام المقررات السابقة التي اتخذتها هيئة الأمم. ولسنا أقل تأكداً من أن يتعيّن على الأمم المتحدة أن تضع ممهدات لهذا الصلح الذي قد يحاول العرب بلوغه معها»

«ليس هناك من قضية لها صفة دولية أكثر ممّا لها هذه القضية. هذه هي الحقيقة المبينة. أإلى هذا الحد يستصغر السيد أوبر ايبان وحكومته عقل العرب، فيدعوانهم الى الإنتحار، على نحو ما يفعلون ؟»

«وأياً كانت المفاوضة مع اسرائيل، فما لها نقطة انطلاق غير وجود دولي بالقدس، وضمانة دولية وتعاقدية للحدود.
«فإذا ما شرعوا من ههنا، بات التقارب من الجوار الصالح ممكناً، ومثله ارتقاب عيش يحتمل، بشريطة أن تُحلّ مشكلة اللاجئين المفجعة.
«لن ترتضي بلدان الجامعة العربية غير هذا، إنها لن تقترف هذا الجنون».

– ميشال شيحا يقول بالفم الملآن : إنّ الدخول في مفاوضات بالشروط الإسرائيلية ليس سوى تسويغ لاغتصاباتها اللاّحقة وليس الحاصلة وحسب.

– فالتهليل لما تطرحه اسرائيل، والقبول به، لا يصنع سلماً، بل يهيّء لحروب.

– وإنّ قبول العرب بذلك ليس إلاّ انتحاراً لهم.

× وهذه الحقائق، قدّمها عام **١٩٥٢** : منذ ٤٥ عاماً

× وهل أنّ الموقف اللبناني والسوري المشترك، والرؤية اللبنانية والسورية الواحدة، من المفاوضات الراهنة ومتابعتها، إلاّ أخذ بهذه المفاهيم الجوهرية ؟؟

– في ٣١ كانون الأول ١٩٥٢، يسهر ميشال شيحا أيضاً ليلة رأس السنة مع فلسطين، ويردّ على مطالبة موشي شاريت بمنع العرب من التسلّح، وبإبقاء هذا الحقّ وقفاً على اسرائيل، على المعتدي، وهي المدجّجة أصلاً بالسلاح :

– «أعلى القوة وحدها تعتمد اسرائيل لتدع العرب في خيبتهم حتى نهاية الدهر ؟ لئن كانت السلم تبتغي، فبغير هذه الوسائل تحظى به...

– «يقلق اسرائيل أن ترى الأقطار العربية تستزيد تسلحاً، على كونها هي مدجّجة بالسلاح. وينحي موشي شاريت باللائمة على الولايات المتّحدة وعلى انكلترا، وتسمع له ملامات قاسية...».

– وفي **١٦ كانون الثاني ١٩٥٣**، في مطلع السنة الجديدة، يرسل ميشال شيحا «صرخة من القلب» بوجه إعلان بن غوريون أن القدس عاصمة اسرائيل منبّهاً مرة أخرى بعد مرّات :

«... لا يتم نموّ اسرائيل، ولا يسعه أن يتمّ، إلاّ على حساب جيرانها... منذ أعوام ونحن نلفت الى أن اسرائيل تسعى الى تحقيق حلمها بالإمبراطورية، مرحلةً إثر مرحلة، وفيه الويل لاسرائيل وجيران اسرائيل...»

«... من يصدّق لحظة بأن الأوضاع التي نحن فيها هي قوام السلام ؟ ومن يعزو الى العرب هذا القدر من السذاجة والغفلة، بحيث يسكتون عن عملية اجتياح تهيّأ ضدهم، وتتخذ حدودها المضمرة المستقبلة، أعالي ما بين النهرين، حتى كلدان القديمة ؟».

– أمّا اليوم، فمن يصدّق، غير الغافل بالطبع، أن إسرائيل هي بوارد السلام، فيما تمعن ماضية بغرس المستوطنات، وترفض الإنسحاب من الجولان والجنوب ؟؟ وتعلن القدس اليوم، بعد إعلان بن غوريون بالأمس، عاصمة لها ممعنة في تهويد بيت المقدس.

× في **٢١ تشرين الأول ١٩٥٣**، يعاود ميشال شيحا تأكيده على الجوهر السياسي للمشكلة، ويطالب المبعوث الأميركي الى الشرق الأوسط آنذاك اريك جونستون، يطالبه بالإنتباه الى أنّ المشكلة سياسية أولاً وليست اقتصادية :

– «إنّما المشكلة العربية الإسرائيلية مشكلة سياسية أوّلاً. مشكلة سياسة قبل كل شيء... ومن زعم أن مشكلة كهذه تحلّ بحل اقتصادي وحسب، فقد أتى ضلالاً مبيناً.. إنّهم لن يأتوا كبير شيء، ما لم تصفّ المشكلة السياسية».

«.. ولسوف تلقى قضية اللاجئين حلّها يوم تُحل القضايا السياسية، ويوم تضمن الحدود العربية الإسرائيلية بضمانة تعاقدية دولية، ويفرض على اسرائيل تدويل فعلي للقدس وافٍ».

× وفي ٢٤ تشرين الأول ١٩٥٣، يعاود ميشال شيحا التحذير من مغبّة توقيع معاهدة صلح وسلام مع اسرائيل بإسم حل مأساة اللاّجئين مالياً. بإسم اتفاقات اقتصادية مفصولة، تطبّع الأوضاع قبل الحل السياسي الشامل :

« .. لأن الشرق الأدنى لن يمنح السلام بريّ صحراء سينا، وتنظيم مجرى الأردن ... فإذا ما قصر النقاش الفلسطيني على اللاّجئين كان ذلك تجنياً على العقل عظيماً. إن الذي يهزّ شواعر العرب والعالم في مغامرة اسرائيل لا يقتصر على مصير جيل واحد.. »

« ... وإذا ما استمرت الأمور على ما هي، يكون عقد السلم مع اسرائيل إعطاءها الفرص السانحة لمزيد من الإغتصاب والتوسع ».

في **٦ تشرين الثاني ١٩٥٤** : يعلن ميشال شيحا أن **«السلم مع اسرائيل يتوقّف على اسرائيل»**. بأي معنى ؟ بالمعنى ذاته إيّاه، من حيث الجوهر، الذي نتمسك به اليوم وحدنا وللأسف، في كل من لبنان وسوريا، منذ أن انخرطنا معاً في مفاوضات العملية السلمية في مدريد. لنستمع الى ما قاله قبيل وفاته هذا الرجل العظيم :

« لن نظفر على اسرائيل إن نحن أكدنا بأنّنا، مهما كلّف الأمر، لن نعقد سلماً مع اسرائيل ...

« لكننا نظفر عليها حين نظهر الخطر الهائل الماثل في مطامح اسرائيل المسرفة. إنما يجب أن نطالب الأميركيين والإنكليز بضمانات ضد اسرائيل ... »

(إذن، إن السلام المأمول المراد يقضي بأن تتخلّى اسرائيل عن مطامعها وخططها التوسعية. ولكنّ الضمانات الى ذلك تطلب من المجموعة الدولية، أي أن تدخل هذه الدول في أساس المفاوضات مع اسرائيل التي لا يوثق مطلقاً بأي ضمانات تقدّمها..

« ... أما ان اسرائيل لم تعد « مقطناً وطنياً » إنسانياً، فهذا ما لا يغرب عن بال. وأما انها تدغدغ مرامي امبراطورية وسيطرة، فهذا ما لا يغيب عن أحد. ولذا كان السلام مع اسرائيل مستحيلاً، إلاّ إذا... »

« قلنا : إلاّ إذا وضعت الأمم المتحدة، الولايات المتحدة وانكلترا أولاً، حداً لجشع اسرائيل، وأضحى الوجود الدولي السياسي القانوني الدائم في الأماكن المقدسة، وتدويل القدس معه، أمراً واقعاً، وضُمنت الحدود العربية الإسرائيلية تعاقدياً، ونهائياً على الصعيد الدولي، بصرف النظر عن « البيان الثلاثي ». فلقد شرعنا نعلم، ونرى بالفعل، الى أي حد غدا هذا « البيان الثلاثي » متصلاً بنظرية « النسبية » الشهيرة... »

« وهكذا يحسن العرب التصرف بإظهارهم إمكان الوصول الى السلام وليس استحالته ».

– في ١٥ كانون الأول ١٩٥٤، في آخر مقالة كتبها، قبل خمسة عشر يوماً من وفاته، كان وداعه لنا أن أوصانا بالقدس، ويده على قلبه من ضياعها النهائيّ.
صلاته الأخيرة كانت نقداً موجوعاً محرقاً من أجل إنقاذ هذه القدس المقدّسة من براثن اسرائيل :

فيكتب ميشال شيحا :

« ... ذلك أن اسرائيل تبسط سيادتها، أصلاً، على ثلاثة أرباع المدينة المقدّسة. وما تطمح له، أوّلاً، هو الربع الباقي، أي خصوصاً، موقع الهيكل، الذي هو في الوقت عينه المسجد الأقصى ».

« ... ومن أجل الحصول على فتات من القدس، تعرّض شرق الأردن الى الخطر المدينة بأكملها مع كل محيطها... بل إنّها بمعارضتها تدويل القدس، إنّما تعارض خلاصها نفسه كدولة »

« ... شيئاً فشيئاً، تتابع اسرائيل فتح القدس. وكان نجاحها الأخير حصولها على أن يجري تسليم أوراق اعتماد سفراء ثلاث من الدول العظمى في القدس. فمرحلة بعد مرحلة، تجعل اسرائيل العالمية من القدس عاصمتها ».

وبإزاء الخلافات والتشرذم العربي حيال وضعية القدس، كتب ميشال شيحا :

« ... فليكفّوا، إذاً، عن الكلام على توحيد السياسة الخارجية العربية ... وعن الكلام – بما يبعث على الضحك – على كفاح فعّال ضد اسرائيل.. »

فالمسألة التي يطرحها هنا ميشال شيحا، ومن حيث الجوهر، تتعدّى مجرد دولة عربية معينة، لتطول كل موقف أو دولة عربية تخرج عن التضامن العربي، وتقدّم مصالح ضيقة آنية على القضية العامّة، والخطر الأكبر. إنّه يخاطب بالنقد والتنديد كل موقف منفرد في التعاطي مع طروحات اسرائيل، ومع مخططاتها، ويدعو الى التضامن العربي والى وحدة الصف العربي اللذين طالما نناشد نحن وسوريا العودة إليه والتسلّح به.

xxxxxx

لسوف تدركون، أيها السادة، في قراءتكم ميشال شيحا، أنّ ما كتبه، بل ما أوصى بالأخذ به من أسسٍ ومن ثوابت عربية في التعامل مع اسرائيل، إنّما يلتقي، من حيث الجوهر، وبل بالتفاصيل الدقيقة أيضاً، مع الثوابت التي انطلقنا نحن منها، ومن الحرص عليها، في كل من لبنان وسوريا، في ما يتعلّق بانخراطنا معاً في المفاوضات من أجل سلام حقيقي في المنطقة منذ بدئها في مدريد.

إنّ ما كتبه ميشال شيحا في هذا الموضوع، يبدو وكأنّه يكتبه اليوم. بل يبدو وكأنّه سيكتبه غداً. فتحذيره من مغبّة المفاوضات مع اسرائيل والصلح معها بدون الإنطلاق من أسس تحفظ حقوقنا، وتحذيره من مغبّة الإقدام على المفاوضات بصورة منفردة، ومغبّة الوقوع في وهم سلم منفرد، وصرخته بضرورة التضامن العربي، وانتباهه الباكر الباكر الى أنّه «على كل لبناني، وكلّ سوري، أن يتذكّر بأننا من هذا المطمع وهذا السلطان (الإسرائيلي) في أمتٍ جوار. وأن المغامرة اليهودية لن تؤتى توسّعها المنشود إلاّ بمشيها على أجسادنا» (كما كتب في ٤ تشرين الأول ١٩٤٧)، وإنّ انتباهه، ومنذ البدء، الى أن المصير اللبناني السوري واحد، والمواجهة واحدة، وإنّ تحذيره من الوقوع في الفخ الإسرائيلي الرامي الى تحجيم المشكلة في مجرد الإقتصاد، وتلقى حلّها اقتصادياً، وليست كما هي فعلاً، مشكلة سياسية ولن يكون حلّها غير سياسي أولاً ؛

إنّ ذلك كلّه، نقرأه اليوم ليس في كتاب ميشال شيحا وحسب، بل نقرأه متجسّداً في ثوابتنا وفي مواقفنا اللبنانية السورية المشتركة اليوم. وكم جهدنا ونجهد، ونتابع السعي، من أجل أن تكون مواقف سائر الأشقاء العرب متضامنة معنا.

وميشال شيحا، كما تعرفون حقّ العلم، لم يكن سوى رمز الإعتدال وعنوانه وفيلسوفه الأوّل. ومن موقعه المعتدل هذا، طرح كل هذه المواقف، وحضّ على الأخذ بها. لم يكن هو متطرّفاً، ولا نحن اليوم بمتطرّفين. نحن معه، نتمسّك بهذه الثوابت، لأننا مخلصون في الدفاع عن وجودنا والبقاء. مخلصون في إرادة السلم الحقيقي، السلم العادل والشامل.

ميشال شيحا ما يزال يخاطبنا بعد موته، مثلما خاطبنا في حياته. رجل التاريخ ما يزال يحيا معنا، يخاطب وعينا كي لا نقترف الأخطاء المميتة بحق مستقبلنا، وكي لا نلفظ وأولادنا خارج التاريخ. وكلّنا أمل بأن تزداد الآذان التي تحسن الإصغاء.